بكيفية تثير الاعجاب · فاذا ما قبلنا معه كون مصير التقنية هو نفس مصير الميتافيزيقا ، وكون العلم يبدو كظل اعلى (ارادة الارادة) للسيطرة الغربية ، فاننا قد نجيد فهم موقف الاستشراق داخل حقل العلوم الاجتماعية · ان الاستشراق الفرنسي ، بعد ان انغمس في فقه اللغة والاسطوغرافيا ، والنزعة الثقافية ، اخذ ينفتح ، منذ امد قريب ، على التحليل البنيوي ، وعلى السيميائية وعلى الماركسية ، الا ان محاكمة هذه المعارف قد طرحت فيما يتعلق بمسألة اسسها الميتافيزيقية · وطالما ان الاستشراق يكتفي باتباع الايديولوجيـــة السائدة في عصره ، بدون محاولة التفكير فيها ، وطالما انه لا يتأمـــل في « هامشـه الضروري » ، فانه سيظل مقتفيا لآثار الميتافيزيقا · انه في الوقت الذي بدأ فكر المغايرة يفرض قوة خصبة ، نجد الاستشراق يتابع طريقتـــه الوضعية ، وكأن نيتشه وفرويد ، وهيدجر ، لم يوجدوا قط ، وكأن فينومينولوجية سارتر العجيبة وتأمل دريدا اليقظ ، لـــم يتحدثا ، كل حسب أسلوبه ، عن مسألة كل غرب وكل شرق · ماذا يفيد ان نحاول القيام بتحليل سيميولوجي للقرآن (كما فعل بيرك) اذا كان الشرق سيظل نبأ مغلوطا ومجـــرد تمرين انسانوي ؟ لكننا سنرى ان بيرك يكتب من موقع من يوجد في حالة « اسقـــاط » Preterition (كلمة يتذوقها كثيرا) والاسقاط حسب قاموس زوبير ، هو : «اغفال ذكر وريث شرعي في وصية » · علينا الا ننسى ، اذن ، مصير الاستشراق في الوصيـة الميتافيزيقية ، لكن من سيكتب هذه الوصية ؟

٣ ــ سواء كان الاستشراق مسيحيا او مثاليا او عقلانيا ، فانه متضامن مع النزعـــة الانسانية · اكثر من ذلك ، تجد الانسانية اللاهوتية في الاستشراق ملجأ عند التقهقر · فعندما انسحب الاله السكولاستيكي من مسرح الغرب ، في القرن التاسع عشر ، تاركـا المجال للانسان باعتباره فاعلا للتاريخ ، بادر الاستشراق الى استرجاعه عند العرب · ما هي الضرورة الداخلية التي تجذب الاستشراق نحو الاسلام ؟ هل يرجع ذلك الى كـون الاله قد تخلى عن الغرب لشيطانية تقنية ؟

في الاخرويات المحمومة التي كتبها ماسينيون ، نجد ان الاسلام هو الذي ينقذ ، خـلال فترة من التاريخ ، الانسانية (الابراهيمية بطبيعة الحال) · فالاسلام رفع من جديـــد مستوى الايمان ، في حين ان المسيحية المنحرفة عن حقيقتها الاولية ، قد نسيت ، حسـب ماسينيون ، رسالتها النبوية بتسترها على الجريمة الاستعمارية ، ودوسها بذلك ، لحق الالتجاء الابدي فوق هذه الارض · الامر نفسه بالنسبة للديانة اليهودية التي ضللتهـــا الصهيونية · ان الاله الابراهيمي الماسينيون ، يساند كلمة الضعفاء والمسيطر عليهم ويهيء التصالح الكبير بين هذه الديانات الثلاث ·

ينتسب بيرك ، وهو يتجه في مسار آخر ، لفلسفة الانوار ، وبخاصة لفلسفة جـــان جاك روسو · لذلك فان استشهاداته بماركس وسارتر وهيرقليد (« صديق الاشياء وأبونا المشترك » ، كما يقول) هي استشهادات سطحية وظرفية · انه يطالب ، مفتتنا بأبوة روسو، مثله في ذلك مثل ليفي ستروس الذي يؤسس الانتربولوجيا البنيوية علـى النوستالجيـــا اللاهوتية للاصل · وقد حلل هذه الهيومانية Humanisme تحليلا نفاذا ، جاك دريدا الذي لا يزال الحصار مضروبا حوله بسبب تعلقه المتين بالإستماع الى كل ما هو صـــادر عـن الهوامش ، وبقياس التباعد · ذلك الهامش الذي يسهر على ظلالهSimulacres الخاصة · ان فكر دريدا قفزة نظرية ·· فهل فهموا ذلك جيدا ؟

مهما يكن ، فان انسانوية بيرك ، تتكيء ، في جميع مستوياتها الفاعلة ، على لاهوتيـة واخروية يضفي عليها طابعا دنيويا ويخفيها تحت اسم « طوباوية » · انه يتمنى قيـــام